ISSN : 2543-3938 - EISSN : 2602-7771

القصص الشعبي في ظل فوضى المصطلح واضطراب المفاهيم

Folktales under the Mix-up of Terminology and Confusion of Concepts

الدكتورة: حسيبة شكاط

قسم اللغة والأدب العربي - جامعة 20 أوت 1955- سكيكدة (الجزائر)، h.chekatt@univ_skikda.dz

تاريخ الإستلام: 12/ 05 / 2021 **تاريخ القبول**: 20/ 09 / 2021 **تاريخ النشر**: 30/ 12 / 2021

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى معالجة مسائل تدور في فلك اختلاف وائتلاف الدراسات النقدية حول القصة الشعبية بغية رفع اللبس الحاصل من اضطراب في المصطلح، واختلاف في المفاهيم، وإشكال في المنهج والتصنيف، وذلك للخروج بدراسة نقدية جامعة وموحدة.

توصلنا من خلال الدراسة إلى أن الاختلاف في تحديد المفاهيم يتعلق بعدم وضوح المصطلح،ما أنتج تراكما أدى إلى صعوبة تحديد موحد، وعدم تكييف المادة المدروسة مع المنهج الغربي، في ظل اعتماد أغلب النقاد تصنيفات عالمية، نظرا لغياب منظومة اصطلاحية موحدة.

الكلمات المفتاحية: التصنيف ، الدراسات النقدية، المصطلح، المفهوم، القصة الشعبية ،المنهج.

***

Abstract:

This study aims at dealing with issues about the divergence and convergence of critical studies about the folktale in order to get rid of the confusion resulting from the mix up of terminology, difference in concepts and a problem of methodology and classification, in order to obtain a unifid and universal critical study. Through the study,

We realized that the divergence in determining concepts is about the ambiguity of terminology, and this produced an accumulation leading to the difficulty to obtain a unified determination and the non adaptation of the studied subject to occidental curriculum, as most of critics use international classifications, due to the absence of a unified terminology system.

Keywords: Clacification, Concept, Critical Studies, Folktale, Methodology, Terminology

ا. مقدمة

كثيرا ما لهج النقاد بمصطلح الأدب الشعبي في دراساتهم، فهو لا يقل قيمة عن الأدب الرسمي، فقد خلف أجدادنا كما هائلا من النماذج الشعبية القديمة. من لا يعرف ولا يقدر قيمتها، لما فيها من خلق وإبداع وروح مجتمع يسري مع الأجيال المتعاقبة، وإن إهمالها وعدم الاهتمام بجمعها ودراستها ما جعلها على هامش الأدب على الرغم من المحاولات الجادة والقليلة المعدودة التي لم تستطع منع ضياع الكثير منها.

ولع العرب القدامى بمجالس السمر وما يروى من قصص توارثتها الأجيال،وما وصل إلينا اليوم من تنوع وثراء التراث القصصي العربي لدليل على شغف الإنسان الشعبي بفن الحكي باعتباره موروث أمة وانعكاس لنمط عيش معين وطرق تفكير مخصوصة. وهذا ما يدعو إلى ضرورة الالتفات إليه والعناية به حرصا على جمعه وتصنيفه ودراسته دراسة جادة لا تدفن في شكل مخطوطات تنسى مع الزمن على رفوف الخزانة.

إن إشكال دراسة القصة الشعبية هو إشكال ضبط المصطلح بدقة أولا، وإشكال تعدد مفهومها وأنواعها ثانيا ثم إشكال تصنيفها وتكييف المنهج الغربي المطبق عليها ثالثا.هي إشكالات أساسية جعلت من عملية التلقي مشوشة غير واضحة، هل يتوافق هذا المصطلح مع هذا المفهوم؟ وهل يصلح هذا المنهج لدراسة المدونة؟ وهل تلقاه الناقد وكيفه مع بيئة نشأتها أم أسقطه دون أن ينتبه لاختلاف خصوصيات القصة الشعبية في بيئتها العربية المختلفة عن البيئة الغربية. تكشف هذه الورقة البحثية عن هذه الإشكالات التي لطالما تدارسها الباحثون لكن دون جدوى، فالمصطلح بقي هو نفسه، وبقي الدرس نفسه، في غياب منظومة مضبوطة تؤسس لها. وذلك بهدف عرض آراء النقاد في هذا المجال ثم الوقوف على الاختلاف، ثم رفع اللبس عن هذا الاختلاف، بطرح اقتراحات بديلة.

لا يتأتى هذا دون طرح منهجي قصدنا من خلاله ترتيب عناصره: بداية بطرح اختلاف مصطلحات القصص الشعبي وما ترتب عنه بالضرورة اختلاف في المفهوم والأنواع، وقفنا عند بعضها، ثم أسسنا من خلال الدراسات السابقة رؤيا عن تصنيف القصص الشعبي، وكيفية تطبيق المنهج الغربي على المدونة العربية، وذلك باتخاذ بعض العينات كدراسة.

أولا: القصص الشعبي في الدراسات العربية

اهتم الدارسون العرب المشارقة بالقصص الشعبي، وتناولوه بحثا ودرسا وتطبيقا لمناهج كان أهمها منهج فلاديمير بروب، كما كانت دراسات نبيلة إبراهيم السباقة لذلك في كتابها "قصصنا الشعبي من الرومنسية إلى الواقعية"، و"القص الشعبي بين النظرية والتطبيق" و"أشكال التعبير الشعبي"، قدمت فيها مجهودات معترف بها، يكفي أنها كانت من الأوائل الذين تدارسوا منهج بروب وحاولوا فهمه وتطبيقه، وبالرغم من تلك الانتقادات التي طالتها في دراساتها من جوانب مختلفة، إلا أن الكثير من الدارسين العرب تبعوا خطواتها وصرحوا بمجهوداتها.

أولى الدارسون المغاربة اهتمامهم بالمادة القصصية جمعا ودرسا، فتعددت الدراسات وتباينت بحسب طبيعة البحث واختلاف البيئة، ومن الذين اهتموا بالقصص الشعبي مصطفي يعلى في كتابه "القصص الشعبي بالمغرب"، ودراسات محمد المرزوقي ومحمد بن شريفة "الحكاية الشعبية في التراث المغاربي".

أما في الجزائر فقد أولى عبد الحميد بورايو اهتمامه بالقصص الشعبي الجزائري بكتابه "القصص الشعبي بمنطقة بسكرة"، كما اهتم بها في القطر المغاربي بكتابه "الحكاية الشعبية المغاربية"، تميزت دراساته بالتنوع والشمول، إذ شملت كل أقطار الجزائر وكل الأنواع القصصية جمعا وتصنيفا.

كما قدمت ليلى روزلين قريش "القصة الشعبية الجزائرية" وقدم عبد المالك مرتاض "الحكاية في الغرب الجزائري" ... و تابعهم الكثير من الدارسين المهتمين بجمع المادة القصصية الشعبية و دراستها، سواء في شكل بحوث أكاديمية، أو في شكل دراسات مخبرية.

ثانيا: إشكالية ضبط مصطلح القصص الشعبي واختلاف المفاهيم

خصص النقاد والدارسون العرب ورقات بحثية في الأدب الشعبي متبعين في البداية إستراتيجية التلقي العربي للمنهج الغربي بحذافيره، وتتبع آليات تطويعه لتلك المناهج، الأمر الذي أدى إلى اجترار ما قدموه دون احتساب لاختلاف البيئة واختلاف الذهنيات العربية والغربية في ظل تفوق الآخر وخضوع الأنا.

أحدث خضوع الدارس العربي لتمثلات الآخر النقدي ارتباكا ولبسا في الطرح، لذا وجب تكييف بكثير من الدقة المنهج الغربي مع المدونة العربية، مع الحذر من ترجمة المصطلحات، إذ يحتاج التنوع في المادة الشعبية لدراسة معمقة،تكشف البنيات الداخلية والخارجية بكثير من الدقة وتحديد المفاهيم حتى يسهل التصنيف.

بقيت الدراسات النقدية العربية تتخبط في هذه الإشكاليات طوال سنوات، وبقيت كذلك لغاية يومنا هذا «رغم ما عرفته الدراسات الأدبية الشعبية من تقدم معرفي وتطور منهجي، ومن وعي بأنماط القصص الشعبي على المستوى الأجناسي» (مصطفى يعلي، 2021).

إن إخضاع المدونة الشعبية (القصة الشعبية) للدراسة لا يكتسي أية أهمية دون أن ننطلق أولا في دراستنا من تحديد المصطلح وتحديد بعض المفاهيم، إذ يواجه الباحث فوضى المصطلح في مجال الدراسة الأدبية الشعبية والقصص الشعبي كشكل من أشكال الأدب الشعبي،يتعرض هو الآخر إلى اضطراب وخلط وغموض مفاهيمي لا يؤدي إلى الوحدة والاستقرار في وضع ضوابط محددة له، إذ تحتاج الدراسة النقدية إلى تحديد اصطلاحي ومفاهيمي يضع المتلقي والباحث في فهم صحيح ويخرجه من حيرته في اختيار المصطلح المناسب.

وقد نتج هذا الخلط في كثير من الدراسات النقدية لأسباب لعل أهمها:

- اختلاف ترجمة المصطلح بحسب فهم كل باحث لذلك المصطلح
- عدم استقرار الناقد على استعمال مصطلح سردي محدد وموحد لنوع قصصي واحد.

- عدم وجود مصطلحات جاهزة وموحدة ومفاهيم محددة، ما فتح المجال واسعا للفهم والتأويل الفردي، وتفضيل كل باحث مصطلح على آخر، ومفهوم على آخر أيضا.
- اختلاف البيئة والثقافة.

قدمت بعض الدراسات النقدية الحديثة قراءتها للأدب الشعبي عامة والقصص الشعبي بالخصوص من منظور هجين يتخبط في فوضى المصطلح ويخلق تصورا مضطربا للمفاهيم. إن أول خطوة في أي دراسة هو محاولة ضبط مجال الدراسة وتحديد المصطلح، لأنه مفتاح الولوج لأي بحث، لذا بات من الضروري النظر للبيئة التي وجد فيها، والأصل اللغوي الذي نقل منه وحمولاته الدلالية التي تختلف عن البيئة المنقول إليها، ثم يتم تدارسه وتكييفه هو والمنهج المتبع.

انفتح النقاد العرب على المنجز الغربي بهدف النهوض بالأدب الشعبي وبهدف مواكبة التطور.وقد أحدث هذا الانفتاح العربي الغربي بلبلة اصطلاحية خلقت إشكالية أثرت بشكل ملحوظ على تطور الدراسات النقدية وعلى التلقي، وهو ما أعاق عملية تلقي المعرفة الجديدة وعلى وضوحها عند النقل، على الرغم من بعض المحاولات القليلة الجادة التي سعت لتحديد المصطلح بما يتماشى مع المفاهيم العربية المعبر عنها، وما يعوزنا في هذا هو تأخر الاهتمام الجاد للدراسات الأدبية الشعبية، إذ لا تزال في طور النمو.

ينصب اهتمامنا في المستوى الأول على محاولة حصر بعض المصطلحات التي تشكل أساس الدراسة الأدبية الشعبية والقصصية بالخصوص، لعل أهمها: الحكاية الشعبية والقصص الشعبي، إذ اختلف النقاد في استعمال المصطلحين بالمفهوم العام ،فتارة يطلقون مصطلح الحكاية الشعبية، وتارة أخرى مصطلح القصص الشعبي مما أحدث إرباكا بين الأصل والنوع «فالحكاية جنس فرعي من أجناس التعبير في القصص الشعبي وليست هي الأصل» (مرسي الصباغ، 2006)، ونقصد بذلك نوع الحكاية الشعبية الذي يطلق على جميع أنواع السرد الشعبي كما هو شائع ومتداول بين النقاد، ويجعله الناقد مصطفى يعلى في كتابه القصص الشعبي بالمغرب - دراسة مورفولوجية - نوعا من أنواع القصة الشعبية، إذ يؤثر استعمال مصطلح القصص الشعبي نعتا للسرد الشعبي بكل أنواعه المختلفة، تحاشيا للخلط الذي يقع بين هذا المعنى والحكاية الشعبية باعتبارها نوعا سرديا شعبيا خاصا بدلا من مصطلح الحكاية الشعبية (مصطفى يعلي، 2001).

يعود الخلط بين مصطلحي القصة والحكاية إلى صعوبة تحديد مفهومهما،كما تقر بذلك نبيلة إبراهيم في كتابها "أشكال التعبير الشعبي" إذ تقول: «وإذا كنا لم نصادف صعوبة في تعريف الأنواع السابقة، حيث تعرف نفسها بنفسها، وحيث أن كل نوع يتحدد في ذاته تحديدا كاملا، بحيث لا يمكن أن يختلط بغيره من الأنواع الأخرى، فإننا لن نجد هذا ميسرا في تعريف الحكاية الشعبية، إذ قد يعترض معترض بأن أي نتاج قصصي شعبي مكتمل يمكن أن يطلق عليه حكاية شعبية، ونحن إذ كنا نرى هذا صحيحا إلى حد ما، إلا أننا نرى وجوب تحديد كل نوع شعبي ... والحكاية الشعبية بدورها نوع متميز عن أي نوع أدبي شعبي آخر...» (نبيلة ابراهيم، 1994).

تقدم نبيلة إبراهيم تعريفات أجنبية حتى يسهل إعطاء ضبط مصطلح الحكاية الشعبية بقولها: «تعرفها المعاجم الألمانية، الخبر الذي يتصل بحدث قديم ينتقل عن طريق الرواية الشفوية من جيل لآخر...» (نبيلة ابراهيم، 1994)، وتخلص إلى أن المعاجم تتفق على أن الحكاية الشعبية قصة شفوية متوارثة تتناقل جيلا بعد جيل.

نلاحظ من خلال ما سبق استعمال مصطلح الحكاية الشعبية بحذر شديد كيلا يقع اللبس في المفاهيم، لتسمية نوع سردي شعبي بهذا الاسم، وعندما نتصفح بعض عناوين المراجع في هذا المجال ،نجدها تزاوج بين هذين المصطلحين على اختلاف المفاهيم، فمثلا: كتاب قصصنا الشعبي من الرومانسية إلى الواقعية لنبيلة إبراهيم، وكتاب الحكاية الشعبية لعبد الحميد يونس، وكلا يقصد نوعا واحدا.

إن المصادر اللغوية العربية تقطع الشك باليقين، في تقديمها للمادة اللغوية الغنية، ما يفند قضية التباين ويجعلها أمرا غير مقبول، كما يجعل نقل المصطلح غير مبرر، إلا إذا احتكم الناقل للغة المنقول عنها والمنقول إليه(الغربية والعربية) معا، دون الاحتكام للغة المنقول عنها فحسب، كما فعل مصطفى يعلى في تبريره لاستعمال مصطلح القصص الشعبي و«ذلك بإعطاء مرادف conte بالفرنسية و curent بالاسبانية تعنيان الحكاية والقصة معا، وتبريره أن اللغتين لا تستعملان الحكاية الشعبية لغرضين مختلفين، بل تطلق على النوع السردي الشعبي مصطلح الحكاية الواقعية» (مصطفى يعلي، 2001).

إنه من الضروري العودة للجانب اللغوي والاصطلاحي للحكاية والقصة عند الغربيين ثم الوقوف عند ما تلقاه العرب من مصطلح، مع ربطه بالجذر العربي، لأن تراثنا اللغوي العربي غني بذلك. فمادة حكى في لسان العرب: «الحكاية من حكى يحكي، كقولك حكيت فلانا وحاكيته: فعلت مثل فعله أو قلت مثل قوله، وحكيت عنه الحديث حكاية وحكوت عنه حديثا في معنى حكيته،وفي الحديث ما سرني أني حكيت فلانا وأن لي كذا أي فعلت مثل فعله. يقال: حكاه وحاكاه وأكثرها يستعمل في القبيح..» (ابن منظور، 1990).

أما القصة فجاءت في لسان العرب بمعنى: «الخبر، وهو القصص. وقص علي خبره يقصه قصا وقصصا: أورده. والقصص: الخبر المقصوص بالفتح، وضع موضع المصدر حتى صار أغلب عليه. والقصة الأمر والحديث والخبر والشأن ... ويقال: في رأسه قصة يعني الجملة من الكلام» (ابن منظور، 1990).

نتوصل من المعنى اللغوي المذكور في لسان العرب للفظة حكى وقص، أن الأولى تحيل على المماثلة والمحاكاة، بينما تختص الثانية بجملة من الكلام المكتوب. فالحكاية ترتبط بالمشافهة، أما القصة فهي تحيل على نمط سردي معين.

ويؤكد ذلك الباحث عبد الحميد بورايو بأن الحكاية الشعبية تبنى على المشافهة «إذ يذهب علماء التراث إلى أنّ الفنون القولية تحتل المكانة الأهم في الأدب الشعبي، وإلى أنّ الحكاية الشعبية تأتي على رأس هذا الأدب، وذلك لما تحدثه من تأثير في المتلقي في طريقة سردها التي تكشف عن كنون النفس البشرية» (عبد الحميد بورايو، 2007).

فعندما نقف عند مصطلح الحكاية نجده يحمل معاني كثيرة مختلف في توظيف معناه في إطاره الصحيح، ففي المستوى اللغوي تعني الحكاية التقليد والمشابهة، بالنسبة للقدامى المرتبطة بالمشافهة وهي تأخذ معنى القصة في بعض الأحيان.

غير أن الحكاية أصبحت تعني جميع أنواع السرد الشعبي. تجعل منها ليلى قريش «مرادفة للأدب الشعبي فهي تتنوع وفقا لأهداف ثلاث بوجه عام تمجيد أفعال الأجداد والتداول الفني للأساطير القديمة والتسجيل الواقعي لأحداث الحياة اليومية وما إلى ذلك» (روزلين ليلى قريش، 1980).

أما نحن فنؤثر تجنبا للبس توحيد هذا المصطلح انطلاقا من استعمال القصص الشعبي تماشيا والتطورات الحاصلة وكذا إخراج الأدب الشعبي من دائرة الإقصاء إلى مواكبته للأدب الرسمي في تسمية القصص، حتى لا ندخل في خلط اصطلاحي من جديد

وكلما حاولنا التعمق أكثر في الجانب الاصطلاحي، كلما حصل الارتباك أكثر وذلك للتنوع الرهيب الذي كان بالإمكان تطويقه منذ البداية، بقليل من الحذر والتأني، دون العفوية والذاتية، ولما دخلنا متاهة التحديد الاصطلاحي فيما بعد، إذ لم يسلم مصطلح في القصص الشعبي من التباين ولم تسلم أنواعه منه، نحاول تحديد بعضها كمصطلحات ثانوية وأنواع فرعية كثيرة، تتداخل مصطلحاتها كما تتباين مفاهيمها بحسب كل ناقد:

فمنهم من يستعمل مصطلح الحكاية الخرافية، حكاية الخوارق الحكاية العجيبة، القصة العجيبة، القصة الخرافية، الخرافة، خرافات الجنيات، الحكاية الخرافية، حكاية العفاريت، لأنها تحيل كلها على الحكاية العجيبة لما فيها من إدهاش وسحر .

لقد شاع استعمال مصطلح (الحكاية الخرافية) نسبة لما قدمته الناقدة نبيلة إبراهيم عندما ترجمت كتاب فريدريدش فون ديرلاين بالحكاية الخرافية عندما تقول: «على أن هذه الخصائص التي تتسم بها الحكاية الخرافية الهندية، ليست سوى خصائص الهنود أنفسهم فالمزج بين دقة الحس التي لا مثيل لها والتفكير المرهف، وبين التكرار الذي لا نهاية له والتنسيق الموضوعي، والنمو المتزايد المستمر، والخيال الذي لا يشبع من ناحية والمهارة الفطرية في البناء من ناحية أخرى، وبين الحكمة العميقة وإدراك الحياة من جهة، والجنون الطائش» (فريديريك فون دير لاين، 1976) .

وقد أرجعت الناقدة استعمالها لمصطلح الحكاية الخرافية بالنظر للواقع عندما تعرفها بقولها «الحكاية الخرافية تتألف من مجموعة الحوادث الجزئية تكون في النهاية حدثا كليا، فإذا حاولنا أن نرد هذه الحوادث الجزئية إلى عالمنا الواقعي، فإننا نشعر على التو أن هذا مستحيلا ...» (نبيلة إبراهيم، دت) وقد شاع هذا المصطلح منذ ذاك الوقت في الدراسات، وكذا في قاعات التدريس وترسخ في الأذهان.

ويشاطر الناقدة في استعمال هذا المصطلح الباحث الدكتور عبد الحميد بورايو بحجة تداول المصطلح وانتشاره في حقل الدراسات والأبحاث الجامعية، ويعطي مرادفات لما تداوله الآخرون كالحكاية العجيبة، والخرافة والحكاية السحرية .

أحدث مصطلح الحكاية الخرافية ارتباكا في الدراسات، إذ يدلي كل ناقد بدلوه في هذا المجال، ويطلق كل باحث على هذا النوع السردي مصطلحا يراه هو مناسبا، ويحدث هذا الاختلاف بسبب الترجمة والنقل من اللغة الغربية إلى اللغة العربية، إذ تعود الناقدة نبيلة إبراهيم في تبنيها مصطلح الحكاية الخرافية، عند ترجمتها لكتاب فلاديمير بروب مورفولوجية الحكاية العجيبة)، فتارة تترجمه بمورفولوجية الحكاية الخرافية ومرة أخرى بمورفولوجية الحكاية الشعبية، وبالنظر إلى موضوع الكتاب فإنه يعالج نوعا سرديا معينا. ويتبعها إبراهيم الخطيب في ترجمتها للكتاب فيطلق عليه مورفولوجية الخرافة.

كما يترجم عبد الكريم حسن وسميرة بن عمو كتاب بروب بمورفولوجيا القصة (فلاديمير بروب، 1990). يزاوج في هذا الكتاب، بين الحكاية الخرافية والحكاية الشعبية، ويعود إلى ترجمة نبيلة إبراهيم بدعوى أنّ هذه الترجمة صحيحة.

وهناك من النقاد من يعطي بديلا لهذا المصطلح، وذلك بإحلال مصطلح آخر يراه مناسبا أكثر كالعجيب أو الحكاية العجيبة، كما فعل مصطفى يعلى عندما يقول: «فيما يتعلق بما أطلق عليه خطأ مصطلح (الحكاية الخرافية)، و غير هذا المصطلح مما سبقت معرفته فإننا نتبنى مصطلح (الحكاية العجيبة) ونود لو شاع تداوله بين الباحثين العرب ...» (مصطفي يعلى، 2001)، إذ يرى ترجمة المصطلح الأجنبي conte merveilleux بالحكاية الخرافية الخطأ ويعلل ذلك بعودته للمعجم الفرنسي الذي يعني: عجيب، مدهش (مصطفي يعلى، 2001).مع العلم أن تراثنا العربي ملئ بالخرافي، حتى أن العرب القدامى تداولوا مصطلحا نعت بالخرافة وموجود لغاية اليوم يتداول مصطلح الخرافة وخريفة وحجاية في وسطنا الشعبي.

إن الخلط في استعمال هذا المصطلح أحدث ارتباكا مفاهيميا .إذ أن الأمر لا يتوقف هنا بل نجد هذا الارتباك في استعمال معنى الحكاية الخرافية عند أغلب النقاد، بمصطلحات مختلفة، مثلما قدمه عبد الفتاح كيليطو في الأدب والغرابة (عبد الفتاح كيليطو، 2006). فلا يتوقف الأمر عند اختلاف المصطلح، بل يتعداه إلى اختلاف المفاهيم.

إن الأمر لا يخص هذا النوع السردي فحسب، بل يتجاوزه إلى الأنواع السردية الشعبية الأخرى، كالنوع السردي الذي يرتبط بالحياة الواقعية فقد أطلق عليه النقاد بالحكاية الشعبية وحكايات الحياة اليومية، والحكاية الواقعية والحكاية الاجتماعية والحكاية الشعبية الواقعية وغيرها، غير أن الملاحظ على العموم هو الإجماع على مصطلح واحد هو الحكاية الشعبية.

كما خصص مصطلح حكايات الحيوان، وحكايات حول الحيوان وفابيولا الحيوان كما فعلت نبيلة إبراهيم وحكايات الحيوان الخرافية وغيرها ... وهو الذي يعنون به النوع الخرافي أو الخرافة.

تقر نبيلة إبراهيم بارتباط الحكاية الخرافية بالعالم السحري المجهول كأهم خاصية لها.

ويعطي مصطفى يعلى هذا المصطلح مفهوما آخر انطلاقا من بنائه، فهو نوع سردي شعبي دائر في عالم الطبيعة بأسلوب رمزي لغاية تعليمية محضة ويستبعد عنها مصطلح حكاية الحيوان، وهذا المفهوم يختلف عما قدمته الناقدة نبيلة إبراهيم، ويقصد به الحكاية العجيبة في بنياتها، والتي تقصد باصطلاحها الحكاية

الخرافية، إذ «يحصر الحكاية العجيبة في موضوع غريب كل الغرابة بشكل يثير العجب والإدهاش في النفس، لاسيما وأن الحدث لا علاقة له بالواقع العيني» (مصطفي يعلى، 2001)، فهذا العالم بحسبه يقوم على كل ما هو عجيب ومدهش كما أشار لذلك تودوروف في تمييزه بين العجيب والغريب. وهي الحكاية التي طبق عليها بروب في منهجه المورفولوجي الذي يتوفر على الوظائف 31، تلقاه النقاد العرب بعده بالدراسة والتطبيق ..

كما يتعلق الاختلاف في تحديد المفاهيم بعدم وضوح المصطلح في حد ذاته على الرغم من صعوبة تحديد موحد بين النقاد، لأن هذه المصطلحات فضفاضة وأطلقت في مجال معرفي مختلف، وعندما ينقل إلى آخر يتغير المفهوم بالإضافة إلى اختلاف المفاهيم القديمة والمفاهيم الحديثة.

وتبقى مشكلة المصطلح ما تزال إشكالية مطروحة لغاية اليوم، وقضية قائمة، يتلقاها الباحث الجامعي من مصادره الخاصة المتوفرة على اختلاف مصطلحاتها، دون إعادة النظر فيها، أو تكييفها مع المادة المدروسة، لأن تباين المصطلح لدى النقاد، ولد تباينا في المفهوم وذلك بحسب نقل أو ترجمة المصطلح، وبذلك تختلف المفاهيم، لذا كان من الضروري تأسيس منظومة اصطلاحية موحدة بديلة عن السابقة المضطربة، من شأنها أن تساعد على تحديد المصطلح بدقة ومن ثمة وضوحه، انطلاقا من رصد خصوصية كل نوع سردي شعبي.

ثالثا: إشكالية التصنيف وتلقي المنهج الغربي

يختلف النقاد في تعريف بعض أنواع السرد الشعبي، ويعود ذلك إلى التصنيف المعتمد والرؤيا الخاصة ويقودنا اختلاف المفاهيم إلى إشكالية التصنيف وتطبيق المنهج. إذ صنفت القصص الشعبي بتصنيفات متباينة ومختلفة، تصب أغلبها في إطار تحديد شكل القصة أو موضوعها وأكثرها يصب في الموضوع أي الحوادث، ويعود الأمر إلى اختلاف مميزات كل بيئة شعبية، فلكل شعب أدبه الخاص الذي يميزه عن غيره، لكنه لا يخرج عن الإطار العام، فبعض الأنواع القصصية الشعبية متفق عليها عالميا ومحليا، إلا أنها تختلف في تميزها بخصائص البيئة والعصر.

لذا لاحظنا أن تصنيف النقاد مبني على ذلك، بالعودة إلى القصص الشعبية المحلية أولا، ثم العالمية ثانيا، ومثال ذلك التصنيف الذي قدمه عبد الحميد بورايو في كتابه القصص الشعبي في منطقة بسكرة، وهو مكيف بحسب بيئة الجزائر، فالصنف الأول يتضمن قصص البطولة، وتتفرع إلى: قصص المغازي وقصص البطولة البدوية، وقصص الأولياء، أما التصنيف الثاني فيتضمن الحكايات الشعبية التي تتفرع بدورها إلى حكايات الحيوان وحكايات الواقع الاجتماعي، أما التصنيف الثالث فيعتمد الحكايات الخرافية، وتتفرع إلى الحكايات الخرافية الخالصة وحكايات الأغوال الغيبية (عبد الحميد بورايو، 1986).

إلى جانب هذا الباحث نلحظ تصنيفات أخرى تصب أغلبها في التصنيفات العالمية مع بعض الاختلافات، نذكر تصنيف نبيلة إبراهيم أساسه الحكاية الشعبية والحكاية الخرافية وتتوزع منهما تصنيفات فرعية، ففي الحكاية الخرافية تصنف الباحثة حكاية الحياة اليومية وحكايات الحيوان ويندرج ضمن الحكاية الشعبية حكايات الواقع الاجتماعي والأخلاقي.

تختلف الباحثة روزالين ليلى قريش في تصنيفها عن تصنيف نبيلة إبراهيم، وذلك لاعتمادها التصنيف بحسب حجم القصص لشعبي، إذ «قسمت الطويلة حسب الموضوع إلى قصص البطولة والخرافة التي تستقي في الأساطير، الدين، وقصة الحيوان، والحب وأصلها العربي في أغلب الأحيان،أما القصص القصيرة التي هي ذات مغزى وتسلية، فأعلبها من أصل مشكوك فيه، وإلى هذا القسم الأخير تنظم القصص المقتبسة من أصل غير عربي ككليلة ودمنة، وألف ليلة وليلة» (روزلين ليلى قريش، 1980).

يقف مصطفى يعلى عند إشكالية التصنيف ويشير إلى «صعوبة عملية جمع القصص الشعبي وتصنيفه لكثرة تنوعه، فهي تمثل إشكالا عويصا» (مصطفى يعلى، 2001).

يبني الباحث تصنيفه على أساس ما يتداول عالميا، وما هو متفق عليه، وإلى ما توفر من مادة قصصية شعبية بالمغرب، إذ حاول بقدر الإمكان تقريب المصطلح إلى مفهومه الخاص به، وبذل جهدا لتوحيده مع عرض آراء أخرى تختلف معه، فقد حدد الأنواع القصصية الشعبية البارزة وهي: الحكاية العجيبة والحكاية الشعبية والحكاية الخرافية والحكاية المرحة ويبرر ذلك، بقوله: «إن هذه الأنواع تكون التفريعات الرئيسية للحكاية فبدونها يتقلص حجها ومجالها.

- كون هذه الأنواع تحتل مكان الصدارة في أغلب التصنيفات المعتمدة عالميا وقوميا.
- إن معظم نصوص المتن القصصي الشعبي بالمغرب لا تخرج في الجملة عن الاندراج ضمن هذه الأنواع الأربعة وهذا ما يتضح من تصفح المجاميع الكثيرة المعدة من قبل أجانب والمغاربة» (مصطفي يعلى، 2001).

إذ يبني تصنيفه هذا على ما يتداول عالميا وما هو متفق عليه وقياسا إلى ما يتوفر من نصوص قصصية شعبية بالمغرب. وقد اقترح «أن تمر عملية التعاطي مع القصص الشعبي بمجموعة من المراحل الأولية الضرورية، ومنها جمعه وتصنيفه وتبويبه وأرشفته قبل مقاربته بمختلف المناهج والغايات المتعددة» (مصطفي يعلى، 2001).

تعتبر تصنيفات مصطفى يعلى من أكثر التصنيفات دقة وشمولية وتحديدا لكل نوع وماهيته، ويبقى إشكال التصنيف على الرغم من المجهودات المبدولة قائما، يؤدي بنا إلى إشكال آخر وهو تطبيق المنهج على المدونة القصصية العربية.

أحدث تطبيق المنهج ارتباكا في عملية التحليل، وهي الإشكالية المطروحة ليس في مجال الأدب فحسب بل يتعداه إلى الأدب الرسمي أيضا، لأن الناقد يقع في إشكالية نقل حرفي للمنهج الغربي ويحاول تطبيقه على المدونة العربية، دون النظر إلى اختلاف خصوصيات الأدبين الغربي والعربي، وهو ما وقعت فيه نبيلة إبراهيم في تطبيقها للمنهج المورفولوجي لبروب ببحثها عن الوحدات والوظائف المذكورة في المنهج، دون تكييف ذلك مع المدونة العربية، مع إرباك في التحليل فتارة تشير إلى المنهج المورفولوجي وإلى الوظائف وتارة أخرى تحلل الحكاية من وجهة نفسية ...

لم تطبق الباحثة المنهج البروبي تطبيقا دقيقا، لأن اختلاف البيئة يؤدي حتما إلى اختلاف وتنوع القصة، وتنوع وحداتها ووظائفها، وبالتالي تختلف القصص الروسية التي طبق عليها بروب منهجه عن القصص العربية التي لم يتفق بعد على تصنيفها، فكيف بتطبيق منهج عليها. لأن ما يعوزنا في الدراسة الشعبية هو الجمع لتلك المادة الشعبية الغنية بتفريعاتها وأجزائها ودراساتها دراسة تكيف المعطى النظري.

ولربما كان مجهود مصطفى يعلى أدق في تطبيق هذا المنهج، لأنه يبحث عن وظائف ووحدات في الحكاية العجيبة المغربية، واختلافها مع البقية خارج هذا القطر، في استنطاق لهذه النصوص بحسب حجم الوحدات الوظيفية التي تشكل المتن الحكائي، خروجا من تلك الضوابط والثوابت التي وضعت في المنهج المورفولوجي، ولطالما تبعها النقاد العرب بحرفية وهذا يؤكد اختلاف وتفرع وتنوع التفاصيل في الحكاية العجيبة أو في غيرها وذلك من خلال أفعال الأبطال.

II. الطرق والأدوات

أثارت دراسة القصص الشعبي إشكالية لم تجد لها توحيدا بعد من قبل الباحثين ،إذ اختلفت طروحاتهم وتباينت رؤاهم ،ولم تخرج دراساتهم لحد الآن طرحا جامعا، يتبنى مصطلحا ومفهوما وتصنيفا موحدا، لذا قدمت هذه الورقة البحثية لأجل استجلاء هذا الاضطراب وذلك بطرح العديد من الآراء النقدية المختلفة في دراسة القصص الشعبي، وقوفا عند مفاصل أساسية: أولها الاختلاف في ترجمة المصطلح وما نتج عنه من اختلاف في المفهوم، وآخرها تطبيق الناقد للمنهج الغربي دون تطويعه بالنظر للبيئة العربية المختلفة.

انبت دراستنا هذه على العرض والتحليل في مجال نقد النقد في استقراء وتصنيف المدونة القصصية الشعبية، وذلك بعرض النظريات النقدية ثم تبيين مواطن الاختلاف.

III. نتائج الدراسة

يختلف مصطلح القصص الشعبي من ناقد لأخر ومن بيئة لأخرى، وذلك راجع لعامل الترجمة الذي لعب دورا هاما في حصول الارتباك الاصطلاحي، من خلال نقل المصطلح الغربي لبيئة عربية دون مراعاة اختلاف البيئتين، ونقصد هنا مصطلح الحكاية الشعبية والقصص الشعبي، إذ اختلف النقاد في الجمع بين المصطلحين، فتارة يفضل أن يطلق مصطلح الحكاية الشعبية على جميع أنواع السرد الشعبي، وتارة أخرى يطلق على نوع من القصة الشعبية، وهنا نتفق مع ما توصل إليه مصطفى يعلى في دراسته.

يختلف مفهوم القصة الخرافية عن القصة العجيبة، إذ شاع استعمال مصطلح القصة الخرافية في دراساتنا، دون تطابق المفهوم مع مجال الطرح، كما فعلت نبيلة إبراهيم في كتابها القصص الشعبي وأشكال التعبير الشعبي، ومن خلال ما قدم من آراء حول هذا الإشكال نتوصل إلى توحيد مصطلح القصة العجيبة نظرا لتطابق مفهومها ومصطلحها.

كما يختلف تصنيف النقاد العرب والمغاربة، فكل تصنيف يحتكم لرؤية صاحبها مثلما قدمه عبد الحميد بورايو وما قدمته روزلين ليلى،وما قدمه مصطفى يعلى في تصنيفه للقصص الشعبي المغربي، وكانت أدق الدراسات، لأنه بدأ بالعالمي ثم المحلي.

أما فيما يخص المنهج فلم يراعي فيه النقاد كما فعلت نبيلة إبراهيم، توخي اختلاف المدونة الغربية والعربية وخصوصياتهما .

IV. خاتمة

نخلص إلى القول بضرورة إزالة الارتباك الاصطلاحي الذي لا يتعلق بمجال الأدب الشعبي فحسب، بل يتعداه إلى الحقول الأخرى والاهتمام أكثر بالمجال الشعبي كذلك والاتفاق على مصطلحات بعينها كالقصص الشعبي الدالة على السرد الشعبي عامة، والحكاية الشعبية كنوع منها. ومن ثم يمكن الوقوف على حدود المفاهيم وضبطها وإرجاعها إلى إطارها الصحيح، لكي نستطيع تصنيف القصص الشعبي محليا وعالميا، وذلك بوضع ضوابط محددة ومنظمة، من خلال الاتفاق على مصطلح واحد وفهمه فهما صحيحا، يخرج الباحث والمتلقي من دائرة التشويش والحيرة.

من خلال اطلاعنا على المنجز النقدي ومن خلال دراستنا نتوصل إلى استنتاج مفاده أن الاختلاف في المصطلح يعود إلى تلقي النظريات النقدية والمناهج من الغرب، وعدم توخي الدقة في نقلها من ذاك الحقل إلى حقل الدراسة العربي،كما ينتج عن اختلاف المصطلح اختلاف في المفهوم كمفهوم الحكاية الخرافية الشائع ومفهوم الحكاية العجيبة، نظرا للاستعمال الشائع لمصطلح الحكاية دون القصة، وهذا أدى إلى تقديم رؤى مختلفة كان المتأمل فيها المتلقي الذي بقي مشوشا بين هذا المصطلح وذاك، وهذا المفهوم وآخر.

إن ما قدمه الناقد مصطفى يعلى هو الأقرب إلى الاستعمال، من ناحية تبني مصطلحات بعينها أو مفاهيم تتناسب وذلك المصطلح، لأنه حاول أن يقدم دراسة توفيقية جامعة. وعليه من خلال ما توصلنا إليه يمكن أن نقترح:

- وضع القصة الشعبية في المقام الأول كشكل من أشكال الأدب الشعبي، ينبغي ضبط مصطلحاتها مع تحديد تصنيفاتها،
- اختلاف مفاهيم أنواع القصة الشعبية، كمصطلح القصة العجيبة بدل القصة الخرافية خروجا من دائرة اللبس.
- تفضيل مصطلح القصة الشعبية على مصطلح الحكاية الشعبية خروجا من الخلط بين القصة والحكاية،
- تفضيل مصطلح الحكاية العجيبة على مصطلح الحكاية الخرافية لأن عالمها عجائبي مدهش في مفهومه.
- اختلاف تصنيف المادة القصصية يستدعي مراعاة بيئتها.
- اختلاف المنهج مع المدونة القصصية...

هدفت هذه الدراسة لمعالجة مسألة المصطلح وما يترتب عن اختلافه اختلافا في المفهوم والمنهج، ويبقى حقلها واسعا لدراسات أخرى نظرية كانت أو تطبيقية لسبر جوانب أخرى تبقى مفتوحة.

الإحالات والمراجع:

الكتب:

1) ابن منظور، لسان العرب، ج3. دار إحياء التراث العربي، لبنان ط3، 1990، ص 73، 273.
2) روزلين ليلى قريش، القصة الشعبية الجزائرية ذات الأصل العربي ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1980، ص 91، 95.
3) عبد الحميد بورايو، القصص الشعبي في منطقة بسكرة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 89، 90، 185.
4) عبد الفتاح كيليطو، الأدب و الغرابة، دار توبقال للنشر، 2006.
5) فريديريك فون ديرلاين، الحكاية الخرافية، ت. د. نبيلة إبراهيم، ط2، بيروت، 1976، ص 195.
6) فلاديمير بروب: مورفولوجيا القصة ت. عبد الكريم حسن و سميرة بن عمر شراع للنشر و التوزيع، دمشق، ط1، 1990، ص 20.
7) مرسي الصباغ، القصص الشعبي العربي في التراث العربي.دار الوفاء لدنيا النشر والطباعة،ط1، الاسكندرية، 2006، ص10.
8) مصطفي يعلى، القصص الشعبي بالمغرب، شركة النشر و التوزيع، المدارس، ط1، 2001، ص 01، 44، 46، 47، 48، 54، 56.
9) نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير الشعبي، دار المعارف، ط3، القاهرة، دت، ص 62.
10) نبيلة إبراهيم، قصصنا الشعبي من الرومانسية إلى الواقعية، دار العودة بيروت، دار الكتاب العربي، طرابلس، 1994، ص91.

المقالات:

1) مصطفى يعلى، القصص الشعبي المغربي، إشكال التصنيف والتجنيس، أنطولوجيا السرد العربي، 25 مارس 2021. Elantologia.com/page/2222601/